

## صور من الفاهمة لجمهورية

### في حمام السوق

بقلم الأستاذ م . محمد عبد الكريم

وبيت كأحشاء المحب دخلته      ومالي ثياب فيه غير إهابي  
أرى مُحْرِمًا فيه وليس بكعبة      فما ساغ إلا فيه خلع ثيابي  
يثير ضبابًا بالبخار مجنلًا      بدور زجاج في سماء قباب  
توهمت فيه قطعة من جهنم      ولكنها من غير مس عقاب  
أى والله :

وسمع برحته أبا طالب المأمونى إذ أجمل في بيته أبلغ ما يوصف به حمام السوق. وإذا كان شاعر اليتيمة قد دخل الحمام طائما مختارا فما قصده الكاتب الا لزاما واضطرارا .

وبعد : فقد وعدت القارئ في مرض الكلام عن المستوقد أن أجول به أمر الحمام ولم يكن من الميسور أن أدخل حمام السوق ، وأتقل بين مخاطسه وخلواته دون أن أخلع نعلي وأتجرد عن ثياب لانتدثر بدثار رواده ، لذلك وجدت في دراسة الحمام صعوبة لم يهونها سوى صديق الأستاذ بهاء الذى أبى إلا أن يشاطر أخاه ما يلقاه من مشقة وعناء .

في البرعمو يا ولد !

بهذا نادى معلم حمام الأرباء غلامه حين ناولته قطعتين من ذوات العشرة قروش أجرا لدخولى وصاحبى إلى الحمام .

وسارع الغلام إلى قصبية طويلة صوبها نحو جبل عال معلق في ردهة الحمام الخارجية وأزل الينا أربعة دثر "بشاكير" قيل إنها غسلت ونظفت ، ومد المعلم يده تحت أريكتيه وأخرج (قبقاين) كبيرين حملهما الغلام مع الدثر وسار بنا إلى داخل الحمام .

ودخلنا في ردهة قصبية ملاء البخار أرجاءها حتى كاد يوجب كل ما فيها ، ثم عرجنا على غرفة مرتفعة اسمها الخلوة وتركنا الرائد هناك نغلنا ملابسنا وتدثرنا بالدثر .

وكم أثار ضحكي مشهد بهاء أو المهاتما بهاء كما كنت أناديه . فقد بدا كزعيم المنشد في جسمه الناحل ملتقا بإزاره الأبيض الفضفاض ، وهو ينظر من خلف منظاره يمتة ويمرة لا يعلم أين ولا كيف يسير .

وامعري كيف يقوى على السير وقد حملة صاحب الحمام قيقابا لو شد إلى قدمي يميني لأمن حارسه فراره . على أن صاحبنا غالب قيده وسار يتعرقها حمل إلى المغطس .

### في المغطس :

وارتقينا ثلاث درجات عاليات فإذا بنا أمام حوض كبير يتسع لعشرين رجلا ، يحوطه إطار من الحجر المزخرف ، ويتقاط الماء في الحوض من فجوة بالسقف تتصل بمخزان المستوقد الذي يسخن بما يحرق هناك من القمامة .

وبالحمام مغطسان أحدهما فاتر والآخر ساخن . وبكل منهما بالوعة صغيرة تصرف الماء تدريجيا بنسبة ما ينصب في المغطسين من الماء التنظيف .

واتعميت وصاحبي ركنا من أركان حجرة المغطس ومضينا نتحدث إلى المستحمين ونستمع لما يقولون وكلهم من طبقة العمال والباعة ممن أقفرت بيوتهم من الماء الجاري فأتوا يطلبون النظافة في حمام السوق .

### مسامرات :

والحمام تكلية النحل يدوى بطنين من فيه . وهو مجتمع يجد فيه الباحث مجالاً لدراسة الطبقة الغالبة من أبناء البلد ولتعرف شؤونهم وأحوالهم . هذا نجار يشكو لصاحبه الحرب وما نجم عنها من غلاء ثمن الخشب وكساد الصناعة ، وذاك من أرباب الكيف وهواة الجوزة يتدخل بين المتحدثين ليبين لما أن غلاء الخشب لا يقاس بجانب شخ الوارد من الحشيش وندرة الصنف الجيد اليوم .

وهذان شابان مشتبان «في قافية» يملآن الحمام ضحكا وسرورا .

وفي هذا الجو الغريب الذي يحكي ما يصوره صاحب ألف ليلة ، يقف صبي الحمام يحمي الرواد شاديا بصوت رنان :

حمام نعيم والنا مكتوب لكم يا رجال

يا حاضرين كلكم زدتموا المكان ده جمال

حمامنا من أنسكم هايس ومتجلى

والميه رافت بكم . . . يا رايقين البال

وبغاة صاح أحد "رائق البال": هدومي ، ضاعت هدومي . ومضى الصبي وعاد بالمعلم وشغل الجميع بالأمر . أما نحن فسارعنا بدورنا الى الخلوقة نتفقد ملابسنا حتى إذا وجدناها لبسناها ويمتنا شطر الاستراحة .

وحانت منى التفاتة الى النافورة فاذا بي أشاهد رجلا بدينا جاثما على مستحم ممدد، وقد أعمل في إهابه بقفاز صوفى حتى كاد يديه، ولم يكن صاحبنا سوى المكيساتى الذى يتولى تدليك المستحم وتنظيف بشرته .

وفى الاستراحة أو فى الإيوان كما يسمونه يجد الزائر المستحمين رقادا على أرائك عالية حيث يقوم أحد خدم الحمام بعملية التكييس .

والتكييس ( بالباء ) هو تدليك الأعضاء وضغط المفاصل والأطراف .

وأقبل معلم الحمام بعهد أن فرغ من مشكلة الملابس المفقودة وجلس يتحدث إلينا ويثنا شكواه مما يلقاه من شخ فى الرزق وقبود من تعليات الحكومة .

### الحمام بين الأمس واليوم :

إن حمام السوق الذى تعرض له فى هذا المقال هو أثر من الآثار القليلة الباقية من تراث السالفين . نقله الرومان الى هذه البلاد وغرسوا فيها نواته ، فلما دالت دولتهم وآل للعرب ملكهم عمم هؤلاء الحمامات فى مصر وفى غير مصر ، وكان للدين الاسلامى الذى يفرض الغسل ويأمر بالطهارة وبالنظافة أثر كبير فى ذلك .

وقد بدأت العناية بالحمام فى عهد الأمويين ، وبلغت عند الفاطميين شأوا لم يخفضه سوى الحاكم بأمر الله الذى أوصد أبواب أكثرها ومنع النساء من غشيانها .

وظل الحمام محتفظا بأهميته فى بلادنا الى عهد قريب ، فكان مقصد الناس أغنياء وفقراء ، ولم يغفل نصيب المرأة فيه تخصص للنساء يوم فى كل أسبوع واعتبر هذا اليوم عنوانا لكل حمام ، فيقال حمام الأحد إذا كان اليوم المخصص للنساء هو الأحد، وقد جرت العادة أن يعلق على الحمام فى ذلك اليوم منديل أحمر حتى لا يخطئه الرجال ، والويل لمن يضلّه سوء طالعهم منهم فيدخل الحمام حينذاك إذ يقابل ممن فيه مقابلة دونها لقاء بانة الحميم .

وتحجز الموسرات من مر تادات الحمام خلوات خاصة بهن ، وقد يحدث أن تستأجر إحداهن الحمام كله يوما كاملا لتدخل فيه معها من نساء .

وقد كان الحمام ولا زال مقرا لبعض حفلات الإعداد للزفاف ، ففى يوم الخنة يستأجر أهل العروس الحمام كله أو خاوة منه وهناك تقوم "البلاطة" أو "المشاشة" بتزيين العروس وتمشيطها بعد استحمامها ثم تخرج بين زغاريد المدعوات بعد أن تجمع البلاطة منهن النقطة .

وقد تصحب العوالم العروس في استحمامها فينتظمن حول النافورة ويضيقن على الحفل من غنائهن وطيلهن بهجة وبهاء .

### أثر المدنية في حاضرم الحمام :

وكان طبيعيا أن يقاسى الحمام كغيره من المنشآت القديمة من أثر المدنية محنة تضعف من شأنه حتى تكاد اليوم أن تودى به ، فئذ أدخل الماء الجارى فى البيوت وأعدت المنازل بنظامها الحاضر الذى هيا لكل مسكن حماما خاصا قل الإقبال على الحمامات وأصبحت وقفا على الفقراء بعد أن كان الكثيرون من روادها من ذوى اليسار .

وقد حال هذا الكساد دون إنشاء حمامات جديدة ، وزال الكثير من الحمامات القديمة إما لتداعى بنائها أو بسبب ما اقتضاه التنظيم . على أن الحمامات لازال الكثير منها قائما فى المدن الكبيرة كالألكندرية وطنتلا والزقازيق وغيرها . أما القاهرة ففيها ما يقرب من الثلاثين حماما منتشرة فى الأحياء الوطنية كبولاق والسيدة زينب وحى الحسين وباب الشعربة والدرب الأحمر .

### الحمام فى قيود الحكومة :

قضى النظام الصحى أن توضع الحمامات تحت رقابة خاصة ، فالترخيص بإدارة الحمام لا يصدر إلا بعد المعاينة والتحقق من استيفاء الشروط الصحية ، على أن أقمى هذه الشروط وأشدّها ما قضى فيه باستعمال الماء المكرر .

فقد كان الماء المستخدم فيها الى عهد قريب يؤخذ من الآبار بواسطة السواقى أو بالمضخات ، فلما قضى بدم الآبار ألزم أصحاب الحمامات باستعمال الماء المكرر وحده .

يقول أصحاب الحمامات إن وزارة الصحة غير محقة فى فرض هذا التقيّد ، يدعى أنها قضت بدم جميع الآبار فى الحمامات وفى البيوت وليس من المعقول أن تكون كل مياه آبار العاصمة ملوثة ، وإنه إذا جاز أن يكون السبب فى ردم غير الملوّث منها تجنّب توالد البعوض فقد كان من الواجب فى هذه الحالة السماح باقامة المضخات على الآبار بعد ردمها .

وسواء أصح ما يدعيه هؤلاء أم لم يصح فيما لامراء فيه أن فرض هذا التقيّد يجعل أصحاب الحمامات مصارين كبيرة ، وخاصة إذا ذكرنا أن المغاطس والخلوات والنافورات تستنزف كل يوم مئات من الأمتار المكعبة من الماء فى كل حمام فى وقت قل فيه الإقبال على الحمام وكسد سوقه .

### علاج غير ناجع :

وقد استجار أصحاب الحمامات فى العاصمة بالحكومة فأجارتهم من رمضائهم بنار . ذلك بأنها بعد أن توسطت لدى شركة المياه وحملتها على تخفيض سعر الماء من أربعة عشر

مليا ونصف للتر إلى اثني عشر، عمدت إلى فرض نظام غريب لقاء هذا السعي هو إلزام أصحاب الحمامات بقبول الفقراء مجاناً بحماماتهم ، وإذا لاحظنا أن كل رواد الحمامات العامة اليوم هم الفقراء أدركنا فداحة هذا القيد وشدته على أصحاب هذه الصناعة .

وإلزام أصحاب الأعمال بخدمة الفقراء بغير أجر هو اتجاه حميد كان يقابل بالثناء لو أنه فرض على طائفة وافرة الربح كالأطباء مثلا، ولكن فرضه على محترفي هذه الصناعة المحترضة أمر ياباه العدل ولا يقره المنطق السليم .

ومما يدعو إلى الأسف حقا أن الحكومة رغم تحميلها أصحاب الحمامات هذا العبء لم تعصب الهدف الذي ترمى إليه من مساعدة الفقراء ، ذلك بأنها أعدت لهؤلاء بطاقات توزعها عليهم بواسطة مشايخ الحارات وبإشراف أقسام البوليس . ومما لاشك فيه أن شيخ الحارة يبيد في هذه البطاقات موردا جديدا للكسب فهو كلما سلم إحداها إلى فقير قبل أن يتال منه "المعلوم".

الحمام كمؤسسة نافعة :

من الإسراف أن نشير بالغناء الحمامات رغم ما بها من نقص ، فالحمامات العامة مؤسسات نافذة وهي تقوم في أحياء فقيرة فتؤدي لأهلها خدمة كبيرة الأثر .

وحمامنا العربي أو التركي كما يسمونه عادة يقوم على نظم بعضها مأخوذ عن الحمام الهندي كالتكيس والتكيس وبعضها عن الحمام الروماني والبيزنطي كالمغاطس والخلوات والردحات ذوات النافورات .

أما التكيس أو التدليك فهو (Massage-مساج) صهي منشط للدورة الدموية، وهو خير وسيلة لتنظيف المعدة وفتح مسامها وإزالة النفايات الضارة من تحت سطح الجلد .

وأما التكيس وهو ضغط المفاصل والأعضاء فهو عملية صحية تقوم مقام الرياضة العضلية لمن لا يقوى على مزاولتها .

والمغطس الساخن عظيم الفائدة، فهو كما يقول صاحب دائرة المعارف العربية "يمد الجسم بجملة هبة تمتد إلى الاحشاء فتنتشر سوائل الجسم ويشد الامتصاص الجلدي والافراز الكلوي فتهدأ الأعضاء المتعبة وتستريح ، وهو يفيد أصحاب الأمزجة الحادة القابلين للتبيح وكذلك الشيوخ والأولاد والنساء عامة وخاصة الحوامل والمرضعات " .

والحمام التركي يعرفه الأربيون ويقدره فوائده . وهو منتشر في أكثر مدن أوروبا الشرقية كصوفيا وسراجيفو وبخارست كما أن كثيرا من حمامات أوروبا الغربية كحمام جنتر في درسدن والحمام البلدي في هانوفر وحمام كارل مولر في ميونخ وحمامات باكو في بودابست متأثرة في نظمها بالحمام التركي .

## أوجد النقص :

- إن شر ما يتعرض له المستحم في الحمامات العامة هو العدوى ، ومصدرها :
- ( أولا ) كيس الشعر الذى تجرى به عملية التدليك وهو يمر على أجسام كل المستحمين وقد لا يخلو أحدهم من مرض جلدى ينقل لغيره .
- ( ثانيا ) البشاكير كما أن الوماند والفرش التى يضطجع عليها المستحمون خالية في أغلب الأحيان من الأغشية التى يمكن رفعها وغسلها .
- ( ثالثا ) مياه الأحواض (المغاطس) وهى لا تتصرف التصريف الكفيل بتجديدها وذلك بسبب حرص أصحاب الحمامات على عدم زيادة المستهلك منها .
- ( رابعا ) تهوية الحمامات غير الكافية ، وقد عمد أصحابها إلى إحكام إغلاق نوافذها لتحتفظ بحرارتها غير ناظرين إلى ما يسببه فساد الهواء من ضرر بصحة المستحمين بها .

## سبل إصلاح الحمام :

- ( الأول ) أن يباح استخراج الماء من باطن الأرض بالمضخات لتغذية الحمامات بالماء مالم يثبت التحليل الكيأى الذى يعمل لكل حالة أن الماء ملوث وهنا يلزم صاحب الحمام باستعمال الماء المكرر وحده .
- ( الثانى ) أن يرفع القيد الذى فرض على أصحاب الحمامات قبول الفقراء مجاناً فى ذلك من أبحاف بحقهم وخاصة بعد أن لمسنا ضيق مواردهم وكساد عملهم .
- ( الثالث ) أن يلزم كل مستحم باستحضار كيس من الشمر أو الصوف لتدليك بشرته وكذلك يمنع استعمال بشاكير الحمام تجنباً للعدوى .
- ( الرابع ) أن تقرر الحكومة إعانات لأصحاب الحمامات باعتبارها منشآت صحية عامة لاغنى للفقير عنها ، ونعتقد أن مديد المعونة لأصحاب الحمامات القائمة ليصلحوا أمرها ويوفروا أسباب الصحة بها هو أيسر وأدعى إلى الاقتصاد من إنشاء حمامات جديدة بالوحدات الصحية التى تعمل الحكومة على تميمها .
- فإن عاونت الحكومة أصحاب الحمامات جاز لنا أن تبعث إليهم بالفقراء يستحمون بتغير أجر لقاء ما تبذل فى سبلهم من مال ما